

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)).

[يوسف : ١١ - ١٥] .

- (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) أي : قال إخوة يوسف لأبيهم- محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم:-
يا أبانا «مالك لا تأمنا على يوسف» أي : أي شيء جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف في خروجه معنا .
(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) والحال أننا له ناصحون، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص، والود الصادق.
- وفي ندائهم له بلفظ (يا أبانا) استمالة لقلبه، وتحريك لعطفه، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم.
 - والاستفهام في قولهم «مالك لا تأمنا..» للتعجب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته، وهو يوحي بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل.
 - **قال البقاعي** : قوله تعالى (إنا له لناصرحون) والنصح دليل الأمانة وسببها ، ولهذا قرنا في قوله (ناصح أمين) .
والنصح : إخلاص العمل من فساد يتعمد ، وضده الغش .
 - **قال الرازي** : اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول.
 - **قال ابن عاشور** : ولعل يعقوب عليه السلام كان لا يأذن ليوسف عليه السلام بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفاً عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم ، ولم يكن يصرح لهم بأنه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزلوه منزلة من لا يأمنهم ، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.
 - **قال القرطبي** : قيل للحسن : أيجسد المؤمن؟ قال : ما أنساك ببني يعقوب! ولهذا قيل : الأب جلاب والأخ سلاب ؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال.
 - وقالوا ليعقوب : "يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف" وقيل : لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول.
 - وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي.
 - (أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ) الرتع والرتوع هو الاتساع في الملاذ والتنعيم في العيش، يقال: رتع الإنسان في النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت .
 - (وَيَلْعَبُ) المراد باللعب هنا الاستحمام ورفع السامة، كالتسابق عن طريق العدو، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة.
 - (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) كل الحفظ من أن يصيبه مكروه، أو يمسه سوء.
 - (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين :
أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يبصر عنه ساعة.
 - **قال ابن كثير** : أي: يشق علي مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لقرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.
 - والثاني** : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به.

وخص الذئب بالذكر لأن الأرض التي عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب.

● قال ابن عاشور : وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أنّ ذهابهم به عدا يحدث به حزناً مستقبلاً ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به لأنّ شأن الابن البار أن يتّقي ما يحزن أباه.

● قال ابن عطية : وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه ، وخصه لأنه كان الحيوان العادي المنبت في القطر ، وروي أن يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد على يوسف .

(وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه.

(قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا خَاسِرُونَ) أي: قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه: يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته، إنا إذا في هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة، نستحق بسببها عدم الصلاح لأي شيء نافع.

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ) أي: فلما أفتعوا أباهم بإرسال يوسف معهم، وذهبوا به في الغد إلى حيث يريدون، واجتمعوا أمرهم على أن يلغوا به في قعر الجب، فعلوا به ما فعلوا من الأذى، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة.

● قال ابن كثير : قوله تعالى (وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ) هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهِرُونه له إكراماً له ، وبسطاً وشرحاً لصدرة ، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبّله ودعا له.

● قال الألوسي : والروايات في كيفية إلقائه في الجب، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة، وقد تضمنت ما يلين له الصخر، لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

● فقوله تعالى (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا) فيه وجهان :

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويؤخّهم على ما صنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيراً له بالسلامة.

الثاني : أنه أوحى إليه بالذي يصنعون به ؛ فعلى هذا (يكون) الوحي قبل إلقائه في الجبّ إنذاراً له.

● قال السعدي: ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فيه وجهان :

أحدهما : لا يشعرون بأنه أخوهم يوسف ، قاله قتادة وابن جريج.

الثاني : لا يشعرون بوحي الله تعالى له ، أي : لم يعلموا أن الله أوحى إليه .

● اختلف العلماء في قوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) على قولين :

أحدهما : أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين .

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغاً أو كان صبياً ، قال بعضهم : إنه كان في ذلك

الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة ، وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام.

والقول الثاني : إن المراد من هذا الوحي الإلهام .

كما في قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ) وقوله (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) .

● **وقال القرطبي :** قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) دليل على نبوته في ذلك الوقت.

قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة : أعطاه الله النبوة وهو في الحب على حجر مرتفع عن الماء.

وقيل : كان وحي إلهام كقوله (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) .

وقيل : كان مناماً .

والأول أظهر والله أعلم وأن جبريل جاءه بالوحي.

● وكان هذا الإيحاء - على الراجح - قبل أن يبلغ سن الحلم، وقبل أن يكون نبياً .

وكان المقصود منه، إدخال الطمأنينة على قلبه، وتبشيره بما يصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان.

● **قال الشنقيطي :** قوله تعالى (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ) أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه

أوحى إلى يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه سينبئ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به في حال كونهم لا يشعرون.

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه جل وعلا أنجز ذلك الوعد في قوله (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ).

وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله (وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفُوهُ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) .

الفوائد :

١- كلاً من الحسود لا يُسْمَع ، ووعده لا يُقْبَل - وإن كانا في مَعْرِضِ النَّصْحِ ؛ فَإِنَّهُ يُطْعِمُ الشَّهَدَ وَيَسْقِي الصَّابَ .

٢- إن صدق المؤمن يحمله على تصديق من يلحف له ويؤكد كلامه .

٣- كثرة الإلحاح على أمر دليل على شيء مجهول في النفس .

٤- لا حذر مع القدر .

٥- الحفظ يستلزم الرعاية والنصح .

٦- الأب يرتاح ويفرح لكل ما يعود على أولاده بالخير في دينهم أو أبدانهم .

٧- شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه .

٨- حكمة الله في ابتلاء عبده ليرفعه لأعلى الدرجات .

٩- الابتلاء بداية التمكين للمؤمن .

١٠- لطف الله بيوسف وإكرامه له بإعلامه إياه أنه سينبئ إخوته بفعالته .

(وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)) .

[يوسف : ١٦ - ١٨]

(وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) أي : لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة أجراءً على الاعتذار بالكذب .

• قال القرطبي : وإنما جاؤوا عشاءً ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة .

• قال القاعي : (عشاء) في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبيهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا به من الاعتذار ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتسلحج في الاعتذار . والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع .

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) أي : نتسابق عن طريق الرمي بالسهم ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أي : تسابقا حتى ينظر أيهما يسبق الآخر .

(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا) أي : عند الأشياء التي نتمتع بها ونتنفع في رحلتنا ، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك .

(فَأَكَلَهُ الذِّبُّ) في تلك الفترة التي تركناه فيها عند متاعنا ، والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئاً ندفنه .

(وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) يعني في قولنا ، والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولاً لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا في قولنا هذا ، وقيل معناه : إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمانة تدل على صدقنا .

(وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) أي : جاؤوا على ثوبه بدم كذب .

• قال ابن عطية : روي أنهم أخذوا سخلة أو جدياً فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف ، وقالوا ليعقوب : هذا قميصه ، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى ، ثم تأمله فلم ير خرقاً ولا أثر ناب .

فاستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان الذئب حليماً ، يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ - قص هذا القصص ابن عباس وغيره ، وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم لصحة القميص

• قال الرازي : إنما جاؤوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم .

قيل : ذبحوا جدياً ولطخوا ذلك القميص بدمه .

• روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق قميصه .

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) التسويل : التسهيل والتزيين . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل أي زينته وحسنته له ، وصورته له في صورة الشيء الحسن مع أنه قبيح .

أي : قال يعقوب لأنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هي التي زينت لكم أن تفعلوا معه فعلاً سيئاً قبيحاً ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربي ومشيتته .

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) أي : أمري صبر جميل لا شكوى معه .

فالصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى .

قال مجاهد : فصبر جميل ، أي من غير جزع .

وقال الثوري : من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ، ولا تركي نفسك .

وقال ابن الجوزي : وَقَدْ كَانَ السَّلْفُ يَكْرَهُونَ الشُّكُوى إِلَى الخَلْقِ ، وَالشُّكُوى وَإِنْ كَانَ فِيهَا رَاحَةٌ إِلَّا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وَدُلِّ وَالصَّبْرُ عَنْهَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةٍ وَعِزٍّ .

قال ابن تيمية : والصبر الجميل صبر بلا شكوى قال يعقوب الكليلي (إنما أشكو بثي وحزني الى الله) مع قوله (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل .

• يقول أحد الشعراء الحكماء:

وَإِذَا عَزَاكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا *** صَبْرَ الكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ

وَإِذَا شَكَّوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

قال عمر : ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تحزنَ صديقك، وتشجيتَ عدوك .

وقال الأحنف : شكوت إلى عمي في بطني فنهزني، ثم قال: يا بن أخي لا تشك إلى أحدٍ ما نزل بك ، فإنما الناس رجلان ، صديق تسوءه بهذه الشكوى وتؤلمه ، وعدو تسره .

قال ابن القيم : الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرّف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك .

(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) أي : المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزية .

• قال ابن عاشور : وإنما فوض يعقوب الكليلي الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف الكليلي لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه ، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك .

فائدة : قوله تعالى في أيوب (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) هذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه بئس العبد .

الفوائد :

١- أن العين تستحي من العين .

٢- أن البكاء ليس دليلاً على الصدق .

٣- أن الجرائم ترتكب غالباً في الليل وفي الظلام ، لتكون أدعى للستر .

٤- أن الكذب لا يخلو من دليل على بطلانه .

٥- في هذه الآية أن نبي الله يعقوب رغم المصيبة لكنه ضبط نفسه وحملها على ما يرضي الله من الصبر الجميل .

٦- إن من أخلاق الكبار إذا اشتد بهم الكرب والهَم فإنهم يحرصون على الصبر الجميل الذي لا شكوى منه إلا إلى الله .

٧- حسن الثقة بالله وحسن الظن به تعالى ، فإن نبي الله يعقوب الكليلي مع شدة مصابه بفقد ولديه - حتى ابيضت عيناه من الحزن - لم يهز عزمه ، ولم تضعف ثقته في الله بأن يعيد إليه ما فقد (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) .

٨- إن الكرام الصابرين يوقنون بأن مع الليل فجرًا ، وأن مع العسر يسراً ، وأن مع الصبر نصراً ، وأنه إذا انتهت كلمة البشر ،

فما انتهت كلمة الله ، وإذا عُلقَت الأبواب فلن يَغلق بابُ السماء ، وإذا نفذت الأسباب فالأمل في ربِّ الأسباب ، وإذا انقطعت الحبال فإلي حبل الله القويِّ المتين!
٩- أن التلبس بالصبر لا يكون إلا بمعونة الله .
١٠- النفس تسول وتزين وتسهل حتى الأمور العظام .